تفريغ محاضرة

الراضون عن أنفسهم

رواء الاثنين | د. هند القحطاني

٤/٣/١٤٤٠ هـ

من نحن ؟

نحن مجموعةُ نهلنا من معين محاضرات د. هند بنت حسن القحطاني، التي هطلت بروائها على قلوب السامعين، ولما شهدنا ذلك الهطل غيثا مُغيثا مريئا، عملنا بكلّ جدٍ وحُبٍ على جمع المحتوى وتنظيمه ونشره ليسيلَ عذباً إلى قلوبكم

نسعدُ بملاحظاتكم واستفساراتكم على البريد الالكتروني:

info@rawaa.org

الرّاضُونَ عن أنفُسِهم

للرضا مقاييسٌ مختلفة بين النّاس، رضاهم عن حياتهم، عن أنفسهم، عن غيرهم، ولست هنا بصدد الحديث عن الرضا ومعناه، بل عن نوعٍ من النّاس لا تخلو منهم مجالسنا ولا علاقاتنا، ألا وهم الراضون عن أنفسهم، أصحاب الحظ الوافر من الرضا عن النّفس، أولئك الذين يشعرون بالارتياح تجاه حيواتهم وتقييمهم لأنفسهم فيها، إذ أنهم في أمانٍ من الشعور بالإخلال والتقصير.

في المنهج الإسلاميّ توجيهٌ يعينُ على الرضا إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم **(انظروا إلى من هو أسفلَ منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقَكم، فإنه أجدَرُ أن لا تزدَروا نعمةَ اللهِ عليكم)**[1]

وهذا فيما يختص بأمور الدنيا من مالٍ وترف أو جمالٍ وشرف أو جاهٍ وصلة أو نسبٍ وشهرة، ويقابله توجيهٌ فيما يتعلق بأمور الدين تدل عليه عموم الأحكام الشرعية يعبر عنه أحد السلف بقوله: قال الحسن: **إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة.** وقال وهيب بن الورد: **إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل.**

أي أن مقاييسك في الرضا لابد أن تختلف بين أمور الدنيا وأمور الدين، أما الأول فانظر إلى من هو دونك ولا تحسد من فاقك فيها أبدًا كي لا تزدري نعمة الله وتجحدها، أمّا الثاني فانظر إلى من فاقك بقليلٍ وكثيرٍ وسبقك في المنازل والقربات لتسبقه وتعوّض ما فات.

قبل أن ترضى عن نفسك **لا تقارنها** بمن هوَ دونك في الطاعة والصلاح، فتجدك تهون من تقصيرك أمام تقصيره، وتقيسُ مسافةَ بُعدك عن الله فتقرّبها مقارنةً بِبُعده، وتعدُّ حسنات يومك فتأنس حين تفوق عدّ حسناتِه، فلا أنت الذي حصّلت خيرًا أكبر ولا أنت الذي ندم لسوءٍ قدّم، بل تعلّقُ والشيطانُ يؤزك ويرضّيك عن نفسك في حالٍ ليس الرضا ما ينبغي لها ولا الارتياح،

[1] أخرجه الترمذي، وقال: صحيح

وما واجبنا أن نرضى ونعتذر لأنفسنا بالبيئة التي نشأنا فيها، أو العائلة التي تربينا على منهجها، أو الفرص التي أُتيحت لغيرنا وحُرمنا منها، بل واجبنا أن نتطلع إلى منازلِ الواصلين ونقطع دروب السالكين ونجاهد أولاً وثانيًا وأخيرًا حتى نلقى الله راجين عفوه ورضاه.

وإن كنا لا نرضى في أمر الدنيا بالقليل فنتطلع إلى التفوق والنجاح والغنى والكثرة، باذلين العمر والجهد بكفاح، فكيف نرضى في أمر الدين بالقليل بلا همّة تدفعنا ولا إرادة تحرّكنا لنكون لله أقرب، وتكون علاقتنا به سبحانه أصدق وأرضى له؟ ولسنا ولو بذلنا ما بذلنا نصل لحالٍ يمكن أن نرضى معها في علاقتنا بالله، فالعبد الفقير الضعيف المغرور لا يزال مهما حاول وسعى وبذل واجتهد؛ مقصرًا مذنبًا خطاءً ولكنه الله التواب الغفور الرحيم.

ومما يذكر في معرض الحديث عن الرضا عن النّفس؛ الرّضا عن ملازمة صحابِ السوء والأمان لجانب النفس معهم وبينهم، في حالٍ يكون صاحبها كالواقف في بركة طين، تغور قدامه مهلًا دون أن ينتبه لها، مطمئنٌ لرأسه إذ يراه عن الطين بعيد، لاهٍ عن أسفله الغارق وعن حتمية هلاكه في أي لحظة لو جرّته منطقة رخوة من الطين إليها.

لا بِركة الطين آمنة، ولا ثبوت القدم مضمون، والثواني قبل الساعات قد تغيّر خارطة الحياة، الصحاب لهم تأثيرهم وفي النفس ضعف، وليست الهداية والثبات إلّا من الله، فكيف للمرء أن يبلغ هذا الرضا عن النفس، ويغتر بها؟

وقد يقول قائل: إن لي أيامٌ تسير كالدولاب، أقضيها بين أكل وشرب ونوم وقضاءِ الواجب من المهام، لا أفعل شرًا ولا آتي ذنبًا، فلمَ لا أرض؟

ماذا لو كان لا يفعل فيما يفعل أمرًا صوابًا؟ وكان دولابٌ يومه معطوب، يدور مترنحًا، ويسير به إلى مصير غير محبوب؟ والصغير والكبير عند الله مكتوب، وليس شيئًا عنه محجوب **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه) [الزلزلة: 7-8]**

ومنهم من يقطع في سبيل إصلاح نفسه وتأديبها مسافة وأيام ثم تراه يرضى بما قطعه، ويقبل بالحال التي انتقل إليها، وما هوَ الذي للغاية بلغ، وليس في كفيه ضمان الثبات على القليل الذي قطع، وليس القياس يقع على جهاد نفسك الذي بذلته حتى الآن، بل على الجهاد الذي يلزمك لتصل!

مظاهر الراضين عن أنفسهم

للراضين عن أنفسهم مظاهر جليّة ليست عن النّاس خفيّة، وأهمها ثلاث نملك معها لرضانا عن أنفسنا المقياس.

- أولا: عدم الخوف من الله أو قلّته

يتبادر إلى الذهن كثيرا أننا ناجون من الأوصاف التي نكرهها حين نسمع عنها، دون أن نتفحص أنفسنا بدقّة في حال كنا نتصف بها ونحن لا ندري!

هؤلاء الراضون عن أنفسهم لا يخافون الله عز وجل؛ لأن الواحد منهم لا يلقي بالًا لذنوبه ولا يقدرها بقدرها، فيجمع صلواته، أو يسرح في صلاته، أو تمر عليه ثلاثة أو أربعة أسابيع لا يصلي فيها صلاة واحدة خاشعة ولا يتم فيها ركوع واحد، لا يذكر صلاة صلاها فجرًا أو ظهرًا أو عصرًا ما كان فيها من تلاوة أو دعاء، لا ذنبًا عظّمه فاجتنبه أو تاب عنه، ولا خوفًا من الله أن يلقاه بهذا الكم من الصلوات مع علمنا أنه **(لا تزولُ قدمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يسألَ عن عمُرِه فيمَ أفناه، وعن علمِه فيمَ فعَل، وعن مالِه من أين اكتسَبه وفيمَ أنفقَه، وعن جسمِه فيمَ أبلاه)**[2]

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا **(إنَّ أوَّلَ ما يحاسبُ بِه العبدُ يومَ القيامةِ من عملِه صلاتُه فإن صلحت فقد أفلحَ وأنجحَ وإن فسدت فقد خابَ وخسرَ فإن انتقصَ من فريضته شيئًا قالَ الرَّبُّ تبارك وتعالى انظروا هل لعبدي من تطوُّعٍ فيُكمَّلَ بِها ما أنتقصَ منَ الفريضةِ ثمَّ يَكونُ سائرُ عملِه علَى ذلِك)**[3]

[2] أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح
[3] أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب

وروي في قصة المسيء صلاته (**أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَدَّ وَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ. فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ". ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي، فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا ، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**)[4]

وفي الحديث الآخر (**أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ يَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ مَاتَ هَذَا عَلَى حَالِهِ هَذِهِ مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَثَلُ الَّذِي لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ مَثَلُ الْجَائِعِ يَأْكُلُ التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَانِ لَا يُغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئًا**) [5]

فإن كانت ملاقاة الله بصلاة غير صحيحة لا يخيف القلب، فأين الخوف منه؟

ونضرب مثلًا آخر للأعمال والذنوب التي لا تحرك في قلوب الراضين عن أنفسهم خوفًا من الله ولا خشية من عقابه، في ساعات اليوم كاملة نحرك ألسنتنا بالكثير من الكلمات، ما إن نصمت إلّا ويغالبنا الكلام، قد تبلغ لو عددنا العشر ساعات تزيد أو تقل، فكم خلال العام نتحدث من ساعة؟ وكلها محفوظ مسجّل مكتوب، وكم فيها من كلامٍ مباح؟ وكم فيها من الهمز واللمز؟ وكم فيها من التشفي؟ وكم فيها من انتصارٍ للنفس في نقاش؟ وكم فيها من جدل على باطل؟ وكم فيها من استهزاء بأحد من الناس والتعريض به؟ ومن منا جرب أن يحصي كلماته، وينتبه لفلتات لسانه؟ فكيف لا يخاف المرء وهو لا يدري على ماذا انصرمت ساعات كلامه؟

[4] أخرجه البخاري، صحيح
[5] أخرجه الطبراني، وقال الألباني: حسن

أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: **(إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ ، إِنْ كُنَّا نَعُدُّ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُوبِقَاتِ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ)**[6]

الموبقات: أي القتل، الزنا، السحر، فهو يخبر التابعين من بعده وهم من القرون الفاضلة، فكيف بنا بعد ألفٍ وأربعمائة سنة، ما هي الأعمال التي دقت في أعيننا لحدّ ألّا نراها شيء؟

ولذلك كان الصحابة يُكبرون الخطأ ولا يرضون عن أنفسهم وهُم من هُم،
وفي قصّة المرأة الغامدية شاهد، رويّ (أنَّ ماعزَ بنَ مالكٍ الأسلميَّ أتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال :يا رسولَ اللهِ! إني قد ظلمتُ نفسي وزنيتُ وإني أُريدُ أن تُطهِّرَني. فردَّه. فلما كان من الغدِ أتاهُ فقال :يا رسولَ اللهِ! إني قد زنيتُ. فردَّهُ الثانيةَ. **فأرسل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى قومِه فقال (أتعلمونَ بعقلِه بأسًا تُنكرونَ منهُ شيئًا؟)** فقالوا: **ما نعلمُه إلا وَفِيَّ العقلِ. من صالحينا. فيما نرى. فأتاهُ الثالثةَ. فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنهُ فأخبروهُ: أنَّهُ لا بأسَ بهِ ولا بعقلِه. فلما كان الرابعةَ حفرَ لهُ حفرةً ثم أمرَ بهِ فرُجِمَ. قال: فجاءتِ الغامديةُ فقالت :يا رسولَ اللهِ! إني قد زنيتُ فطهِّرْني. وإنَّهُ ردَّها. فلما كان الغدُ قالت :يا رسولَ اللهِ! لم تردَّني؟ لعلك أن تردَّني كما رددتَ ماعزًا. فواللهِ !إني لحبلى. قال (إما لا، فاذهبي حتى تَلِدِي) فلما ولدت أتتْهُ بالصبيِّ في خرقةٍ. قالت: هذا قد ولدتُه. قال (اذهبي فأرضعِيهِ حتى تفطِمِيهِ). فلما فطمَتْهُ أتتْهُ بالصبيِّ في يدِه كسرةُ خبزٍ. فقالت: هذا، يا نبيَّ اللهِ! قد فطمتُه، وقد أكل الطعامَ. فدفع الصبيَّ إلى رجلٍ من المسلمين. ثم أمر بها فحُفِرَ لها إلى صدرها. وأمر الناسَ فرجمُوها. فيُقْبِلُ خالدُ بنُ الوليدِ بحجرٍ. فرمى رأسها. فتنَضَّحَ الدمُ على وجهِ خالدٍ. فسبَّها. فسمع نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبَّهُ إياها. فقال (مهلًا !يا خالدُ! فوالذي نفسي بيدِه! لقد تابت توبةً، لو تابها صاحبُ مَكْسٍ لغُفِرَ لهُ) . ثم أمر بها فصلى عليها ودُفِنَتْ)**[7]

[6] أخرجه البخاري، صحيح
[7] أخرجه مسلم، صحيح

سنتان وحرقة الذنب في قلبها لم تخبو، ورجفة الخوف لم تهدأ، وكم نحنُ نقترف، وكم ذنبًا نجمع ثم لا نخاف!

الجرم ليس في الذنب وحجمه فقط، أو المعصية ووزرها فقد يكون ما نقارفه من الصغائر؛ إنما الجرمُ في الجُرأة على الله، في الجرأة على عصيانه، في الجرأة عليه بلا خوفٍ ولا خشية.

وحشي رضي الله عنه قتل حمزة رضي الله عنه بالرمح لما كان مشركًا، ثم أسلم بعد ذلك وقال: **(لا والله يُكفر عنّي قتل حمزة إلا أن أقتلَ بهذا الرمح عدوّ من أعداءِ الله عز وجل)** فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج مسيلمة الكذاب، قال: **"لأخرجن إلى مسيلمة، لعلي أقتله فأكافئ به حمزة."**

وحقق وحشي رضي الله عنه ما أراده وانتصر المسلمون بعد ذلك، **وما ذاك إلّا لشعور يوجه صاحبه حين يذنب ذنبًا فلا يسكن إلّا إن أتى بحسنة تكفره وتقابله، وهذا ما يجب علينا الشعور به تجاه كل ذنب، فإن غفلنا عن محو سيئة فلتزاحمها بالحسنات (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ)** [114:هود]

كيف لا يقض الخوف مضاجعنا، وقد رُوي لنا عن اثنان من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متآخين! يعني هم أخوان في الله وبينهما علاقة في حياتهما، وتعاهدا أن من يسبق إليه الموت يزور صاحبه ويخبره عما رآى وجرى، يقولانه كلامًا وحديثًا بينهما، فمات أحدهما ولم يره صاحبه لا برؤية ولا بمنام وبعد سنتين رآه فقال له: تأخرت عليّ! قال له: الآن فرغت من الحساب.

سنتان من الحساب! ما الذي كان يملأ حياتهم ذلك الزمان؟

فماذا نقول نحن؟ لا شك أن حسابنا ثقيل؛ لأننا في الدقيقة الواحدة نتقلب بين مشهد وآخر وصفحة وأخرى من تطبيق لبرنامج لمحادثة، والحساب على الخواطر وعلى النظرات والكلمات والصغائر والكبائر، بالثواني والدقائق، فكم سيطول بنا الحساب؟

ثمّة ثمن باهظ علينا بذله لننال، لا تؤتى عاليات المنازل عفوًا.

ولأن الخوف من دوافعه كثرة الذنوب، ولأن الذنوب لها أنواع، نذكرها هنا عدّا ولا نذكر جزاءها لأننا في كثير من الأحيان لا نعرفه

النوع الأول: الذنوب اليومية

ربما تكون كالأنفاس، كعادتنا في الأكل والشرب، يُقترف ويؤتى عادة، ولكنه ذنب، واقترافه حرام مهما اختلف الظروف التي دعت لملازمته، وهذا النوع قد يدخل في دعاء **"اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله وسره وعلانيته".**

النوع الثاني: الذنوب المتعدية

روى الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه ما ينبؤنا عن هذا الذنب فقال: **(افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ ، وَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً ، إِنَّمَا غَنِمْنَا الْبَقَرَ وَالْإِبِلَ وَالْمَتَاعَ وَالْحَوَائِطَ ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى وَادِي الْقُرَى ، وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ ، أَهْدَاهُ لَهُ أَحَدُ بَنِي الضِّبَابِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ ، حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ الْعَبْدَ ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا. فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِرَاكٍ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ ، فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ)**[8]

يغفر للشهيد مع أول دفقة من دمه، إلّا الدَّين، لأنه ذنب متعلق بغيره، وهذا يعلمنا أن كل أمر تقترفه ويكون خارج دائرتك فيتعدى إلى غيرك يتحوّل إلى نوع أثقل من الأوزار، وليس لنا أن نحدد رقمًا، ونكتب كمًّا ولكنّ كل من تسببت في دلالته للشر حملت وزره.

[8] أخرجه البخاري، صحيح

النوع الثالث: الذنب الجاري

من فتح بابًا للشر يحمل على عاتقه وزر كل من ولجه، كما أن من فتح بابًا للخير جنى أجر كل من دخله.

والتقنية بين أيدينا فيها من الأبواب كثيرٌ كثير، من ينشر أو يعلن أو يجاهر ويباهي، من يدعم ومن يمرر ويُعجَبُ ويثني على مالا يرضي الله؛ يكون كمن هدم سدًا تنجرف بعده كل ذنوب من دلّهم حتى تغرقه، فياربّ السلامة.

النوع الرابع: الذنوب القلبية

نوع من الذنوب لا تنطق به ولكنه في القلب موجود (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**) [الحجرات: 12]

لم يخرج الظن ولم يبدو ولكن السوء والسواد والحقد والحسد الساكن في القلب له إثمه، صحيح أن الله لا يعاقب على خطرات النفس ولكنّ ثمة خطراتٌ إذا لم توقّف عند حدها تمّكنت وصارت حية تؤثر فى سلوك صاحبها وحديثه، والقلب أعز الأعضاء ومحركها لو لم يسلم من ذنوبه ويصفو من عيوبه كيف لبقية الجسد أن يسلم؟

النوع الخامس: الذنوب الكيفية

المقصود من هذا النوع من الذنوب هو أن تعصي الله في مكانٍ أو صفة أو حال يتأكد فيها ويفترض ألّا تعصيه أبدًا، كمن يكون في وسط المحيط، والأمواج من حوله عاتية والسماء فوقه راعدة وهو في مركبٍ فيه من الفجور ما فيه، غناءٌ وخلطة وشراب، أو كمن يكون بين غيمتين في الطائرة معلقًا بين السماء والأرض، ولو أراد الله في لحظة لسقطت وهو عاصٍ فيها مجترئ على الذنب، أو كمن يكون مريضًا منهكًا طريح الفراش ويعصيه! كيف يهنأ للقلب أن يعصي الله في مكان وحال هوَ أحوج له فيها؟

النوع السادس: الذنوب السرية

أصحابها هم الذين قال عنهم الرسول عليه الصلاة والسلام **(لَأَعْلَمَنَّ أقوامًا مِن أُمَّتي يَأْتون يومَ القيامةِ بحَسناتٍ أمثالِ جِبالِ تِهامةَ بَيْضاءَ، فيَجْعَلُها اللهُ هَباءً مَنثورًا. قال ثَوْبانُ: يا رسولَ اللهِ، صِفْهُم لنا، جَلِّهِم لنا، أنْ لا نَكُونَ منهُم ونحن لا نَعْلَمُ. قال: أمَا إنَّهُم إخوانُكُم، ومِن جِلْدَتِكُم، ويَأخُذون مِنَ اللَّيلِ كما تَأْخُذون، ولكنَّهُم أقوامٌ إذا خَلَوْا بمَحارمِ اللهِ انتَهَكوها)**[9]

في غيبة الناس اجترأ، في خلوته عصى، حتى غلبت سيئاتُ خلواتهِ حسناتِ خلواتِه، فغدا كل ما يفعله من خير أمام الناس رياء، وما بينه وبين الله جرأة وعصيان، غافلًا عن نظره ورقابته، يحسبه هينا وهو عند الله عظيم **(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ) [15:النور]**

- **ثانيا: خلو القلب من محبة الله أو قلّته**

يخلو القلب من المحبة حين لا يبذل في سبيل الوصول وقتًا ولا جهدًا ولا همّة، يقف عند حد من البعد أو القرب ويكتفي به، في حالة هي على النقيض من حال الحب الذي يعرف عنه التمسك والمحاولة والحرص على القربِ وطلب الرضا من المحبوب، فكيف تكون علاقة العبد مع الله مهزوزة ضعيفة؟

لو كنت تحبه -عزّ وجل-لاسترخصت في سبيله عمرك.

ابن قيم رحمه الله يذكر أربع حالات يختبر فيها المرء محبّته لله تعالى من عدمها وهي في أربعة مواطن:

1- **فالموطن الأول:** عند النوم؛ لأن كشف حساب المرء لنفسه يكون غالبا قبل نومه.

[9] أخرجه ابن ماجه، وقال الألباني: صحيح

من يمنح نفسه فرصة للتفكير قبل نومه ومراجعة ما كان في يومه، تاركًا هاتفه بعيدًا، منشغلًا بفكرِه، يستعرض سريعًا ما جرى من أول النهار إلى الليل، **يؤنب نفسه على خطأ وتقصير ويحمد الله على إحسانٍ وتيسير، مستذكرًا ما كان من إنجاز لدنياه، وراجيًا ما يبقى مدّخرًا لأُخراه، داعيًا الله أن يرضى عنه ويغفر له ويقبل جهده القليل ويتجاوز عنه.**

من يفعل هذا يكون لحب الله في قلبه مكان.

2- **الموطن الثاني:** عند الاستيقاظ؛ لأن الغالب أن ما تنام عليه هوَ ما تستيقظ عليه.

الخواطر التي ترافق قبل النوم وأول الاستيقاظ تكشف للمرء عن مكنون قلبه ومكان حب الله فيه، فمن ينطق أول استيقاظه **"الحمدلله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور"** طالبًا منه المعونة في يومه، والتوفيق لكل خير وطاعة ليس كسِواه.

3- **الموطن الثالث:** الصلاة، ولذلك لما سُئل أحدهم بماذا تفكر في الصلاة؟

قال: أوَ شيء أعظم من الله أحب إليّ منه أفكر به؟

4- **الموطن الرابع:** في وقت الشدائد والأزمات، والفرح والمسرات.

في تبدل الأيام وتقلب الأحوال بين ما يسر أو يسوء فإن المؤمن المحب يطرأ ربه سبحانه أولًا في باله قبل أيٍ من الخلقِ أجمعين، **فيلجأ إليه في الشدّة ويطلبه التيسير والفرج، ويحمده في لحظة الفرح والسرور على منته فلا يطغى بل يذكر ويشكر، متلمسًا لطف الله في حكمه، راضٍ بكل حالٍ هو يقضيها لأن فيها السداد والصلاح والخير الذي نرجوه مهما تبدّا لنا غير ذلك،** دون أن نعطي عقولنا أكبر من حجمها فالعقل الذي يغيب عنه ما يجري في بيت جاره كيف يتطلع إلى الغيب تطلع المنكر المتحدي ولا يسلّم لله؟

- **ثالثا: الإشكال والخطأ في الفهم والتصور**

كلما كبرت في عمرك كلّما صغرت الدنيا في عينيك، كل يوم يزيد في عمرك يكشف لك حقيقة الحياة ويفصح لك عن حال الدنيا، **لذا تجد من طال به العمر وقد هداه الله، لا يبحث عن لهو ولعب بل ينشغل بما بعد الدنيا ويهيئ نفسه فيما تبقى له من عمر للآخرة عاملًا ذاكرًا شاكرًا راجيًا، لكنما لا يمنح كل الناس هذا الطول في العمر،** وقد يختم لمرءٍ وهو لاهٍ في صباه أو شبابه قبل بلوغ شيبته.

الصحابي الجليل صهيب الرومي صعد في مراقي الإسلامِ مقاماتٍ ومنازل فعلم حقيقة الدنيا وهوانها، وحين امتُحن وقت هجرته آثر الباقي على الفاني ففاز، والحكاية على اختصار هي أنه عندما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة، علم صهيب رضي الله عنه بذلك، فعزم على الهجرة، ولكن أعاقه الكافرون، فسبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وحين استطاع الانطلاق بعدهما في الصحراء، أدركته قناصة قريش، فصاح فيهم: "**يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أرماكم، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي ثم أضربكم بسيفي، حتى لا يبقى في يدي منه شيء، فأقدموا إن شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي وتتركوني وشأني**"

فقبل المشركين المال وتركوه قائلين: أتيتنا صعلوكًا فقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت بيننا ما بلغت، والآن تنطلق بنفسك وبمالك، فدلهم على ماله وانطلق إلى المدينة، فأدرك الرسول صلى الله عليه وسلم في قباء، ولم يكد يراه الرسول حتى ناداه متهللاً: "**ربح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى**"، فقال: **يا رسول الله، ما سبقني إليك أحدٌ، وما أخبرك إلا جبريل.**

لو عرض على أحد الموظفين زيادة في ساعات العمل يقابلها زيادة في البدلات والترقيات، مع باقة من الميزات والتسهيلات، فهل يرفض؟ وهل يحسب لتعب الساعات الإضافية حساب مع ما يقابلها من مردود؟

إن المنطق الإنساني يجيب عنا جميعًا، فقليل من التعب الذي يحصّل الكسب مرغوب وإن كان في ظاهره تعب، فالعبرة في المحصّلة والنتيجة، فكيف نخالف حين نُقسم الأعمال إلى فرائض وسنن؟ متغافلين حجم الأجور، مستغنين عن عظيم الفضل والثواب، متحججين بالانشغال والتعب؟ كيف يهون على المرء أن يلج مفاضلاتٍ دنيوية ويترك التنافس على منازلٍ أخروية؟

لو يعلم الإنسان حجم الخسارة التي يبيعها بالرخيص لتفطر قلبه!

(قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لبلالٍ ، عند صلاةِ الغداةِ " **يا بلالُ ! حدِّثْني بأرجى عملٍ عملتَه ، عندك ، في الإسلامِ منفعةٌ . فإني سمعتُ الليلةَ خشفَ نعلَيك بين يدي في الجنةِ . "قال بلالٌ : ما عملتُ عملًا في الإسلامِ أرجى عندي منفعةً ، من إني لا أتطهَّر طهورًا تامًّا ، في ساعةٍ من ليلٍ ولا نهارٍ ، إلا صليتُ بذلك الطهورِ ، ما كتب اللهُ لي أن أُصلِّي**)[10]

لم يذكر بلالًا رضي الله عنه مواقفًا أخرى عظيمة له في الإسلام، ولا عدد مواقف صبره وتحمله في سبيل الله إنما ذكر ما روي في هذا الحديث، فنحن لا ندري أي عمل سيدخلنا الله برحمته به الجنة، وأي صفقة بيع بيننا وبينه هي المنجية، فكيف بالله نُقسم الأعمال تاركين منها متخيّرين؟

يؤتى يوم القيامة برجل سيئاته أكبر من حسناته بسيئة واحدة فقط فلو وجد حسنة واحدة لانتقل من جهنّم إلى الأعراف، فقط لو توازنت كفتي ميزان أعماله لنجى من جهنم، **كان في لحظته الأخيرة قد زادت سيئاته واحدة على حسناته فخسر، في تلك اللحظة والندم والحسرة لا تصفها الكلمات، حسنة واحدة تنجي، سيئة واحدة تهلك؛** كم تساوي الدنيا في عين صاحبها؟

لا شيء ولو استطاع بيعها بحسنة واحدة لفعل ولكن أنّى له!

ما نستصغره في الدنيا من السيئات والمعاصي الآن هو ما سيذوب له القلب يوم القيامة، وليس ذلك ببعيد، مسافة عمر قصير لا ندري متى ينتهي، ومن مات قامت قيامته، وحلت عرصات القيامة الصغرى عليه في برزخ القبر ،فما الذي يستحق؟

وقد يقول قائل: قد عددت سيئاتي وليست بكثير، وقد عددت حسناتي فوجدتها أكثر وأكبر، فهل حقًا أنجو وأكون في الجنة؟

[10] أخرجه مسلم، صحيح]

لا تعد الأعمال أرقامًا، ولا تجمع في الحاسبات، فلها عند الله ميزانٌ عدل ليس كموازين الناس في الحياة، وأوّل نجاتنا بالعمل قبوله، ومن يضمن القبول على التقصير والنقصان فيعد حسناته عد الواثق المتّكل؟

ثمّ عن السيئات لا يقتصر خطرها على كمّها وقد يكون الكم أهون الخطر، **فإن للسيئات تبعاتٌ منها أنها تخونك في نفسك في أشد اللحظات حاجة لإيمانك ويقينك، فتكون ساخطًا أو يائسًا أو معرضًا عن الله لحادثٍ لا ينجيك منه إلا اليقين بالله!**

تجدك غافلًا عنها، حسبتها هينة فنسيتها وإذا بها تكبر وتنمو في داخلك كورم سرطاني ينتشر داخلك ويودي بصحة إيمانك، ذنب واحد قد يكون باب طوفانٍ من الذنوب، ومن راكم ليس كمن نقى قلبه واستغفر بعد ذنوبه، فهلّا فهمنا الحقيقة و انتبهنا لقلوبنا واستغفرنا من ذنوبنا، وتركنا عدّ الأعمال؟

الشيطان الرجيم في يوم القيامة لمّا يُقضى الأمر يقول مقالة لو وعاها اليوم من ينصت له لنجى غدًا **{ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ }[22:إبراهيم]**

لم يمسك يدًا ويجرها، ولم يحرك قدمًا ويخطو عنها، ولم يقلب فكرًا أو ينطق لسانًا، إنّما وسوس وسوسته وألقى وعده، هذا قولُ الشيطان، **(ما أنا بمصرخكم) لا أستطيع لكم إنقاذًا ولا أنقذ نفسي، هوَ ساقطٌ في النار،** وما كان موجودًا إلّا ليسقط معه من بني آدم من اختار الضلالة على الهدى فهلك، فمن المهم والضروري أن تعرف وتفهم حقيقة عدوك.

ومن الحقائق التي يغيب عنها حسن التصور، **أنه لن يهون ولن يكون سهلًا على المؤمن المقصر حين تفتح أبواب الجنة الثمانية ويدعى أصحابها بالأسماء فلا يكون بينهم أبدًا، وأن اختيار حياة الوسط - لا على الهدى ولا إلى الضلالة- ذنوب وإحسان مجتمعان ينجي!**

ولأهل الأعراف موقفٌ موجعٌ حين يطول بهم الانتظار بخمسين ألف عام لا يدرون بعدها مصيرهم إلى الجنة أم إلى النار، وكم جربنا في الحياة صعوبة انتظار رد معلق أو خبر مؤخر لساعاتٍ وأيام، وكيف يكبر القلق ويشتد التوتر في الانتظار، فما لنا ننسى ذلك الموقف لأهل الأعراف منتظرين!

في وجعٍ وندم وحسرة على الخمسين أو الستين عام التي قد يعيشها المرء مفرطًا لاهيًا ليقف سنينًا طوالًا تفوق عمره أضعافًا أضعافًا أضعاف.

ابن قيم رحمه الله لما تحدث عمّن يؤخر توبته، فيذنب ذنبًا وهو يعرف أنه لا يقربه من الله بل يبعده ولا يتوب منه، يؤجل التوبة أيامًا أو أعوام، **يقول إن عليه أن يتوب من ذنبه ويتوبُ أيضاً من تأخير التوبة، لأنه جعل مقام الله في قلبه أدنى من دنياه، ولم يؤثر رضاه ويعجّل في طلبه!**

سليمان عليه السلام قال الله عز وجل عنهُ : **(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [30:ص] جاءت هذهِ اللفظة بعد ماذا؟ بعدما امتُحِن بامتحان شديد على النفس إذ أنه فيما تحبه وتهواه،

فقد كان يحب الخيل ويملكها وللخيل سطوة وحضور، وله فتنة وإبهار، وذات مساء استعرضت مجموعة كبيرة من الخيول أمامه وكانت من أجاود الخيل، إذ عبّر الله عز وجل عنها **{ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ }** فأنستهُ ذِكر ربه؛ قيل غفل عن الصلاة وقيل غفل عن ذِكر ربه خلال استعراضها ومرورها، في موقف بشري حصل ويحصل معنا دائماً ولكن الذي لا يفعله أي بشر **(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)** أي انشغلت بهذا الخيل عن ذكر الله عز وجل الذي هو أحب لي من هذا الخيل إلى أن غابت الشمس ، **(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)** أخذ معه سيفه وعقر هذه الجياد بأعناقها وسوقها فتخلص منها جميعها حتى لا يُبقي لنفسه رجعة لها وقد أنسته أو جعلته يغفل عن الله عز وجل!

كم مرة فتحت باب خير لتفعله، أو فتحت مصحفك لتقرأ وردًا ثم ألهاك هاتفك حتى غالبك النوم فما استطعت إلّا إتمام صفحة أو صفحتين؟ كم من باب يرضي الله عنك فتحته ثمّ ألهاك عنه شيء؟ وهل عاقبنا أو حاسبنا أنفُسنا كما فعل سليمان عليه السلام؟

أولئك الذين أحبوا الله وفهموا حقيقة الدّنيا وعرفوا أنه من الضرورة والسلامة إغلاقُ مداخل الشيطانِ عليهم أيًا كانت، فما الغفلة إلّا سرقة سرقها الشيطان منك وواجبك معرفة من أين سرقك وأي بابٍ ولجه لتغلقه، سليمان عليه السلام عرف الباب فتخلص من الخيل، فما هي أبوابنا؟

وختامُ المقالِ خمسةٌ من السؤال خاطب بها نفسك

مظاهرٌ عرفناها، وصفاتٌ صارت جليّة، راضٍ لا يخاف الله لأنه لو خاف لقاس ذنبه، أو لا يحب الله لأنه لو أحبه لآثره على هواه، أو كان في تصوره نقص وفي فهمه خلل فلا يعرف حقيقة الدنيا والآخرة ولا يزنُهما بالميزان العدل الصحيح، فهلّا أجبت سرّا على آتي الأسئلة؟

- **لو حانت منيّتك فأي ثغرٍ للإسلام سيفتقدك ويُترك خاليًا بعدك أنت؟**
- **مَن مِن الخلق سيفتقدك؟ وبالتأكيد عائلتك ليست مقصودة هنا.**
- **هل تستطيع تسمية عشرة أشخاص كنت سببا مهما في تغيير حياتهم للأفضل؟**
- **هل تملك قائمة المئة شخصٍ -عرفوك أو جهلوك- الذين سعيت سرًا في كفالتهم أو تدريسهم أو تعليمهم أو هدايتهم؟**
- **يؤتى بالإسلام يوم القيامة فيقول يا ربّي هذا نصرني وهذا خذلني.. ماذا سيقول عنكِ أنت؟**

-

يوم القيامة يوم الأسئلة **(لِّيَسْـَٔلَ الصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)** [8:الأحزاب]

يُسأل الأنبياء والرسل، يُسأل الصحابة والصدّيقين، يسأل البر والفاجر، القوي والضعيف، القادر والعاجز، وتسأل أنت!

فما الذي قدّمته لدينك، وأضفته لأمتك ومنحته خالصًا لله ليكون فيه رفعتها ونصرتها وقوّتها؟

لا تنزعنّ عن الكفينِ واجبها
الدينُ منك وأنت أنت للدينِ
هذا ابن حفصٍ أعزّ الله سيرتهُ
للحقِ فاروقًا للنصرِ تمكينِ

- **كم أنت مستعدّ لتنتظرَ زمانًا طارقًا بإلحاح مفتقرًا بِذُلّك عند بابِ الله؟**

أحيانا يؤيسك التعجل فتقفُ دون قرع بابِ الكريم، بعيدًا قصيًا ظانًّا أن الخير ليس لك، وأمانيك محالةٌ بعيدة، أو يُغفلك الشيطان عن حاجتك له فتطرق أبوابًا تردّك وتتزلف لوجوهٍ تعبس لك، أو تستغني بفقرك وتلهو بضعفك، دون أن تجاهد مليًا لتكسب رضى ربّك، وهو يراك ذليلًا ملحًّا طارقًا بابه آناء الليل وأطراف النهار، مقدمًا مناجاتك له على تحقيق غايتك العاجلة، موقنا بكرمه وبسطه ليديه ليعطيك ويمنحك ويُرضيك.

والمجاهدة لالتزام طرق بابه تحتاج زمانًا، وانتظارُ العطية يحتاج يقينًا وصبرًا، فكم من الوقت تنتظر؟ وأنت الذي قد تهدر الساعات على مشاهداتٍ وسماع، وعلى متابعاتٍ وتعليقٍ، فهل قلة الوقت حجّتك؟ وهل عدم المقدرة ما يحول بينك وبين دوام ذكره وسؤالِه؟

إنّ صدق الإرادة هي ما ينقصُ من يطلب منالاً ومكانًا عند الله، أمّا المقدرة والإمكان فقد منحنا الله إياها.

- ما الذي قد تفعله لأجل الله عز وجل؟

ألفنا في أيّامنا أن نبذل لمن نحبه ما يُحبّه، وأن نترك ما نشتهيه لأجله، وهذه سنّة المحبّة؛ **إيثارٌ محاب محبوبك على محابّك، فإن كان الله ولابدّ هوَ في القلبِ الأحبّ والأوّل** فما الذي تركناه خالصًا له، لا لحظٍ نكسبه أو لأنسٍ نطلبه، ولا لرضا أحد من النّاس، أو إرضاء هوى في النفس، بل لله، حبًا لله، ورغبة في رضاه؟ وكم بذلنا له، وخالفنا في بذلنا رغبة في نفسنا أو حاجة لها؟

أمرٌ نفعله أو نتركه دون التفات لموافقة هوانا، أو انتظارٍ لكمالِ قناعة، إنّما يقينًا بأنه أمر الله، طاعة له وامتثالًا لأمره واستسلامًا، والقاعدة "**انظر للآمر ولا تنظر للأمر نفسهِ**"؛ فلا تُحكم عقلك في الأمر لكن انظُر إلى من أمرك بهِ. عن عائشَةَ رضيَ اللَّهُ عنها أنها قالَت: **(يَرحَمُ اللَّهُ نساءَ المُهاجراتِ الأُوَلَ، لمَّا أنزلَ اللَّهُ :وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ شقَّقنَ أكنف مروطَهُنَّ فاختمرنَ بِها)** [11]

- **إلى متى ستستمرُ في طريق الله؟**

قرار قربك منه، والتزامك أمره وامتثالك له والمجاهدة لإرضائه؛ أهوَ مرحلة تنتهي أم أنك اخترته للعمرِ كلّه، تغير الناس وتبدلوا، تنكّب الأحياء وانتكسوا، ابتدعَ من حولك وابتعد؛ وأنت أنت حتى تلقاه على ما اخترت؟

كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: **" اللهم يا مُقلِّبَ القلوبِ ، ثبِّتْ قلبي على دينِك"**[12]

لأن العبرة بالمداومة والثبات على ما اعتقدت أنهُ يُرضي الله عز وجل ويُحبهُ منك، والثبات توفيق ومنّة منه ولن تخلو لحظة في الحياة من الحاجة له، ولا حتّى لطرفة عين.

واجه نفسك وأسألها صراحة، ثم حدد مقدار الرضا الذي يلزمك عنها، وكفى بنفسك عليك شهيدًا.

[11] أخرجه البخاري، صحيح
[12] أخرجه الحاكم، وقال: صحيح

هذا وأسأل الله لي ولكم أن نكون ممن أحسن القول والعمل، وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم نلقاه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

*تنويه: مادة المحاضرة جُمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلّ بروح المحاضرة ومعانيها.